

نظرية عن الثراء وسط الوثائق القديمة

نيكولاس ويد

كاتب بريطاني متخصص في الحقل العلمي



صحيفة نيويورك تايمز

7 أغسطس 2007

The New York Times

In Dusty Archives, a Theory of Affluence

by Nicholas Wade

The New York Times Newspaper

ترجمة: علي الحارس

عبر آلاف من السنين، عاش معظم البشر في فقر مدقع. بدءاً من حياتهم كصيادين والتقاطيين، ومروراً بكدهم كعمال وفلاحين. ولكن بمجيء الثورة الصناعية، قامت بعض المجتمعات بالتخلص من فقرها القديم وحصلت على ثراء مدهش بدلاً منه.

نظرية عن الثراء وسط الوثائق القديمة

لقد بذل المؤرخون وعلماء الاقتصاد جهدا كبيرا في سبيل فهم الكيفية التي حدث بها هذا الانتقال وسبب انحصاره في دول بعينها. لكن أحد العلماء وجد مؤخرا إجابة مذهلة على هذين السؤالين بعد بحث دام عشرين عاما في الوثائق البريطانية التي تعود إلى العصور الوسطى.

يعتقد الدكتور غريغوري كلارك، وهو عالم اقتصاد في جامعة كاليفورنيا، أن الثورة الصناعية (موجة النمو الاقتصادي التي حدثت أول الأمر في بريطانيا حوالي عام 1800) قد حصلت بسبب تغير طرأ على طبيعة الجماعات البشرية. وهذا التغير كان من النوع الذي يقوم فيه الناس بالتطوير التدريجي لسلوكيات جديدة غريبة يتطلبها إنجاز عمل اقتصادي حديث. ويرى كلارك أن قيم الطبقة الوسطى المتمثلة في اللاعنف والتعليم وساعات العمل الطويلة والادخار ما هي إلا قيم انبثقت حديثا في التاريخ الإنساني.

ولأن هذه القيم نمت بشكل أكثر شيوعا في القرون التي سبقت عام 1800، سواء بواسطة التلاقح الثقافي أو التكيف التطوري، فإن المجتمع الانكليزي أصبح في النهاية أكثر إنتاجية بما يكفي للخلاص من الفقر، وتبعه سريعا في ذلك المجتمعات الأخرى التي تتصف بالتاريخ الزراعي الطويل ذاته.

لقد كانت أفكار كلارك تتواتر في مقالات ومخطوطات لعدة سنوات، لكنه جمعها مؤخرا في كتاب يحمل عنوان (وداعا للصدقات). ومع أن عالم الاقتصاد هذا يحمل تقديرا عاليا لما يقدمه من نظريات فإن الكثيرين يختلفون مع أجزاء منها. فهذا المؤرخ فيليب هوفمان من المعهد التقني في كاليفورنيا يرى بأنه كتاب «عظيم يستحق الاهتمام». ويصفه بأنه «مغضب بإمتاع» ويمثل «تحديا حقيقيا» للمدرسة الفكرية السائدة التي ترى بأن مؤسسات المجتمع هي التي تصنع التاريخ الاقتصادي.

أما صامويل باولز، وهو عالم في الاقتصاد يدرس التطور الاقتصادي في معهد سانتافي، فيرى أن ذلك الكتاب إنجاز «عظيم في مجال علم الاجتماع التاريخي، وبخلاف علم الاجتماع

نظرية عن الثراء وسط الوثائق القديمة

سابقاً، يحفل بنظرية اقتصادية حديثة.»

يتمثل الأساس الذي يقوم عليه الكتاب في البيانات التي جمعها والتي مكنته من إعادة بناء صور العديد من ميزات الاقتصاد البريطاني في الفترة (1200-1800م). ومن خلال هذه البيانات، يوضح لنا كلارك وبشكل أوضح بكثير مما كان متوفراً في ما سبق، أن الاقتصاد كان عالقا في فخ المالتوسية: فما أن تقوم تكنولوجيا جديدة بزيادة كفاءة الإنتاج قليلاً، يزداد عدد السكان، وتقوم الأفواه الإضافية باستهلاك الفائض المتحقق، فينخفض دخل الفرد العادي إلى مستواه السابق.

إن هذا الدخل كان في السابق منخفضاً إلى حد يدعو للشفقة وذلك بلحاظ كمية الدقيق التي يمكن شراؤها به. ففي عام 1790 كان استهلاك الفرد العادي في انكلترا 2322 كالوري في اليوم فقط، ولا يتجاوز استهلاك الفقير مجرد 1508 كالوري. بينما كان الفرد في مجتمعات الصيد والالتقاط البدائية يستمتع بحمية ذات 2300 كالوري أو أكثر. ويلاحظ كلارك: «كان الإنسان البدائي على حال أفضل مقارنة بمجتمعات العالم الغنية عام 1800.»

إن ميل المجتمعات البشرية للنمو بما يتجاوز الوارد الغذائي وما ينتج عن ذلك من حياة على شفير المجاعة، ملاحظة وصفها توماس مالتوس في كتاب ألفه عام 1798 وحمل عنوان «رسالة في مبادئ علم السكان.» وهذا الفخ المالتوسي، كما يظهر من بيانات كلارك، سيطر على الاقتصاد الانكليزي بدءاً من عام 1200 وانتهاء بالثورة الصناعية، وربما شمل برؤيته البشرية المعذبة على مدى تاريخها. ولم يكن هنالك متنفس للبشرية خلال التاريخ سوى فترات الكوارث: كالتواعون، حيث هبط عدد السكان بشكل كبير، ونال الناجون كمية أكبر من الغذاء لعدة أجيال تلت.

يحظى كتاب مالتوس بشهرة كبيرة لأنه أوحى لدارون بفكرة الاصطفاء الطبيعي. فبعد أن قرأ دارون عن صراع البقاء الذي تنبأ به مالتوس، كتب في سيرته الذاتية: «صدمت فوراً

نظرية عن الشراء وسط الوثائق القديمة

عندما قرأت بأن العيش في ظل هذه الظروف يجعل الأنواع المفضلة تميل إلى البقاء، بينما تتعرض غير المفضلة منها إلى الدمار... وفي هذه اللحظة حصلت أخيراً على نظرية ذات مغزى.

وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن الاقتصاد الانكليزي نما تحت تأثير الشروط المالتوسية، فهل من الممكن أنه لم يستجب بطريقة ما لقوى الاصطفاء الطبيعي التي تنبأ دارون بأنها تزدهر في ظل هذه الظروف؟ لقد بدأ كلارك بالتساؤل فيما إذا كان الاصطفاء الطبيعي قام فعلاً بتغيير طبيعة المجتمع بنحو ما، وأنه -لو صح ذلك- فهل تكون هذه الظاهرة هي التفسير المفقود للثورة الصناعية.

لقد حدثت الثورة الصناعية، وهي النجاة الأولى من فخ المالتوسية، عندما تم التوصل في النهاية إلى تسريع عملية إنتاج ما يكفي إلى حد يتجاوز سرعة النمو السكاني ويسمح لمتوسط الدخل بالارتفاع. وقد أعطيت الكثير من التفسيرات لهذه الزيادة في الكفاءة، منها ما هو اقتصادي ومنها ما هو سياسي، لكن المؤرخين يرون أن أياً منها ليس مقنعاً بما فيه الكفاية.

كان أول ما فكر به كلارك أن المجتمع ربما تمكن حينها من تطوير مقاومة أكبر للأمراض. وجاء بهذه الفكرة من كتاب «بنادق جراثيم، فولاذ» للكاتب جاريد دياموند حيث ورد فيه أن تمكن الأوروبيين من هزيمة الأمم الأخرى يعود في جانب منه إلى تمتعهم بمناعة أقوى ضد الأمراض.

وتأييداً لفكرة مقاومة الأمراض، يذكر أن مدينة مثل لندن كانت قادرة ومليئة بالأمراض إلى حد جعل ثلث السكان يموت كل جيل، وكان النقص يعوض عبر من يهاجر إليها قادماً من الريف. وهذا طرح أمام كلارك إمكانية أن يكون سكان انكلترا الناجين ما هم إلا أبناء أولئك الفلاحين.

نظرية عن الثراء وسط الوثائق القديمة

جيلا بعد جيل. أصبح للأغنياء أطفال أصحاب أكثر من الفقراء. كما تبين من بحثه. وهذا عنى بأنه كان هنالك حركة اجتماعية تراجعية مستمرة عندما عجز الفقراء عن التكاثر واستولت ذرية الأغنياء على مكانهم. واستنتج قائلا: «إن مجتمع لندن الحديث يرجع في معظمه إلى أصول تنتمي إلى الطبقات الاقتصادية العليا للعصور الوسطى.»

ورأى كلارك بأن ذرية الأغنياء عندما انتشرت في كافة مستويات المجتمع. فإن سلوكياتهم الخاصة بالأغنياء انتشرت معهم أيضا. وقدم وثائق تدل على أن عدة جوانب مما قد يدعى الآن قيم الطبقة الوسطى طرأ عليها التغير منذ عصر الصيد والالتقاط حتى عام 1800. فقد زادت ساعات العمل. وارتفع مستوى المعرفة الأدبية والحسابية. وانخفض معدل العنف بين الناس.

ويقدم كلارك تغييرا كبيرا آخر في السلوك: وهو ازدياد تفضيل الناس للادخار مقارنة بالاستهلاك الفوري. مستنتجا ذلك من الانخفاض الثابت في معدلات الفائدة في الفترة (1200-1800م). فيقول: «التدبير والاقتصاد في الإنفاق. والتفاوض. والعمل الجاد. كانت تترسخ باعتبارها قيما للمجتمعات التي كانت في ما سبق تتصف بالإسراف والعفوية والعنف وحب التبطل.»

وفي عام 1790 تقريبا. حدث تصاعد ثابت في معدل كفاءة الإنتاج لأول مرة في تاريخ الاقتصاد الانكليزي. وكان هذا التصاعد على وتيرة هائلة من التسريع في معدل نمو عملية الإنتاج بحيث أنه مكن انكلترا أخيرا من أن تنجو من فخ المالتوسية وتبدأ الثورة الصناعية.

أما في بقية أرجاء أوروبا إضافة لشرق آسيا. كانت البنية السكانية هناك تتحدد بواسطة آليات الفخ المالتوسي المتحكمة باقتصادياتها الزراعية الثابتة. وقامت القوى العاملة هناك بالتبني السريع للتقنيات الإنتاجية الحديثة التي ظهرت لأول مرة في بريطانيا.

نظرية عن الثراء وسط الوثائق القديمة

ومن المحير أن الثورة الصناعية لم تحدث بادئ الأمر في المجموعات السكانية التي تفوق البريطانيين عددا. مثل الصين واليابان. لكن كلارك اكتشف بيانات تشير إلى أن الطبقات الأغنى في هذين البلدين. الساموراي في اليابان وسلالة قينغ في الصين. كانت عقيمة بشكل يدعو للدهشة مما جعلها تفشل في إنتاج حركية اجتماعية نحو الأسفل لنشر القيم الموجهة نحو الإنتاج كما حدث في بريطانيا.

بدأت الفجوة المعيشية الفاصلة ما بين الدول الأغنى والأفقر بالتسارع في الاتساع بعد الثورة الصناعية من نسبة (1:4) عام 1800 إلى (1:50) في عصرنا الحالي. ونظرا لعدم وجود اتفاق على تفسير موحد للثورة الصناعية فإن خبراء الاقتصاد لا يستطيعون أن يفهموا جيدا الاختلاف ما بين الدول الغنية والفقيرة. وإلا لكان لديهم وسائل أنجع لعلاج ذلك.

يشير العديد من المعلقين إلى فشل المؤسسات السياسية والاجتماعية كسبب لاستمرار الفقر في الدول الفقيرة. لكن الدواء الإصلاحي المفترض أكاديميا «فشل مرارا في علاج المريض» كما يرى كلارك. وهو يشبه ما يدعوه «المراكز العقائدية» المتمثلة في البنك الدولي وصندوق النقد العالمي بالأطباء الشعبيين الذي يصفون الحجامة لعلاج الأمراض التي لا يعرفونها.

وتقضي نظرية كلارك بأنه إذا كانت الثورة الصناعية حصلت نتيجة لتغيرات في سلوك الناس. فإن هذا يقتضي أن المجتمعات التي لم تجد الوقت اللازم للتأقلم مع القيود المالتوسية في الاقتصادات الزراعية لن تكون قادرة على إنجاز الكفاءة الإنتاجية ذاتها.

ويقول كلارك أن قيم الطبقة المتوسطة اللازمة للإنتاجية ربما تكون قد نقلت إما ثقافيا أو وراثيا. ولكنه في بعض أرجاء الكتاب يبدو محبذا لفكرة التطور باعتبارها تفسيرا لذلك. فيقول: «خلال الطريق الزراعي الطويل الذي أوصل إلى الثورة الصناعية. كان الإنسان يتطور بيولوجيا بشكل أكثر ملاءمة للعالم الاقتصادي الحديث.» وأن «انتصار الرأسمالية في العالم الحديث يبدو على هذا الأساس مستحصلا من جيناتنا بنفس القدر الذي تسببت

نظرية عن الثراء وسط الوثائق القديمة

به العوامل الإيديولوجية أو العقلانية.»

وفي نظره أن ما تمت وراثته لم يكن ذكاء على مستوى أعلى؛ فأن يكون المرء صيادا في بيئة تتطلب البحث عن فريسة يحتاج إلى مهارة أكبر بكثير من المهارة التي تتطلبها الأعمال المكررة للفلاح. بل إن كلارك يقول أن ما حدث كان «استعادة للمهارات والطباع التي كانت تختلف كثيرا عن مثيلاتها في عالم ما قبل الزراعة.»

لاقت أطروحة كلارك استحسانا كبيرا من المؤرخين الاقتصاديين الآخرين. على أن قلة اتفقت معها بمجملها. وكثرة نظرت بعين منتقدة إلى معظم العمل. ومع ذلك حصل اقتراحه بالتغير التطوري على موقع يجعله من العوامل المؤثرة في مسيرة التاريخ.

درج المؤرخون على تقبل التغيرات السلوكية لدى الناس كتفسير للأحداث الاقتصادية. على غرار فرضية ماكس فيبر التي تربط بين ظهور الرأسمالية والبروتستانتية. لكن معظم الباحثين في أيامنا هذه غيروا رأيهم إلى وجهة النظر الاقتصادية التي ترى أن الناس متشابهين ويستجيبون بالطريقة نفسها للمحرضات ذاتها. ومن هنا فإنهم يبحثون عن تفسير لأحداث كالثورة الصناعية بناء على التغيرات في البنى المؤسسية لا الناس.

وفي رأي كلارك أن هذه البنى والمحرضات كانت هي نفسها عبر الزمن ولا تقدم إلا القليل لتفسير الظواهر السابقة. ومن هنا كان التوافق الضئيل على تحديد أسباب بعينها لنشوء الثورة الصناعية. ومن خلال قوله بأن الجواب يكمن في سلوك الناس فإن يطلب من زملائه المؤرخين الاقتصاديين أن يعودوا إلى ذلك النمط من التفسيرات الذي طالما رفضوه كما يعيد إلى الأذهان الفكرة التي نادرا ما نظر إليها المؤرخون باعتبارها جزءا من معادلة التفسير: ألا وهي التطور.

لقد افترض المؤرخون أن التغير التطوري على درجة شديدة من التدرج تمنعه من التأثير على المجتمعات خلال فترة تاريخية معينة. لكن علماء الوراثة بما لديهم من معلومات

نظرية عن الشراء وسط الوثائق القديمة

حول الجينوم البشري، بدؤوا باكتشاف أمثلة أكثر قربا من عصرنا تدل على التغير التطوري لدى الإنسان كانتشار المقدر على هضم اللاكتوز لدى المجموعات البشرية التي كانت ترعى الماشية في شمال أوروبا قبل 5 آلاف سنة فقط. وفي دراسة حديثة نشرتها المجلة الأمريكية لعلوم الجينات البشرية ورد دليل على الاصطفاء الطبيعي وهو يؤدي عمله ضمن سكان بوتوريكو منذ عام 1513. ومن هنا يبدو أن المؤرخين قد يكونون في طريقهم لحماس أكبر حول البيانات الاقتصادية للعصور الوسطى ولإعطاء تفاصيل للسلاسل الزمنية التي أعاد كلارك بناءها. وذلك إذا ما قارنا موقفهم بمثيله عندما اقترح كلارك أن المجتمعات البشرية قد تطورت وفق القيود المالتوسية المفروضة على مجتمع زراعي.

يقول الدكتور هوفمان، وهو مؤرخ في معهد كاليفورنيا التكنولوجي: «يستحق كلارك جائزة على ما جمعه من بيانات، ولكني لا أتفق مع فرضياته». وهو يرى أن الهبوط الذي أصاب معدلات الفائدة في انكلترا، مثلا، قد يكون ناتجا عن ما قامت به الدولة من توفير الأمن للمنازل وفرض احترام حقوق العقارات، وليس بسبب تغير في إرادة الناس بأن يدخروا كما يؤكد كلارك.

ويرى الدكتور كينيث بوميرانز (Kenneth L. Pomeranz) وهو مؤرخ في جامعة كاليفورنيا، أن الاصطفاء الطبيعي في فرضية كلارك «هو حجة ضعيفة جدا، وربما هي مجرد غير ضرورية، إن كانت لديك القدرة على اقتفاء أثر التغيير الذي حصل في مؤسسات المجتمع». وفي كتابه الذي نشره مؤخرا بعنوان (الاختلاف الهائل) يحتج بوميرانز أن ظهور مصادر جديدة للطاقة كالفحم واستصلاح أراضي جديدة، كما حصل في مستعمرات أمريكا الشمالية، كانت هي التقدمات الإنتاجية التي دفعت للاقتصاديات الزراعية القديمة بعيدا عن القيود المالتوسية.

ويدلي روبرت برنر (Robert P. Brenner)، وهو مؤرخ في جامعة كاليفورنيا، بدلوه فيعتقد أنه على الرغم من غياب تفسير مقنع حاليا لتعليق انطلاق النمو الاقتصادي في أوروبا حوالي

نظرية عن الثراء وسط الوثائق القديمة

عام 1800، فإنه مقتنع بأن التفسيرات المؤسسية تحمل الجواب في طياتها. وأن فكرة كلارك حول الجينات ودورها في السلوك الرأسمالي ما هي إلا رجم بالغيب.

وعلى الصعيد ذاته يقول الدكتور بولز، وهو اقتصادي من جامعة سانتافي، أنه لم يكن يشعر بالنفور من الفكرة التي ترى أهمية عامل انتقال القيم الرأسمالية عبر الجينات، وكان موقفه منه أن لا يرى لها دليلاً حتى الآن. ويوضح: «إن الأمر هو مجرد أننا لا نعلم أي شيء عن كنه هذه الظاهرة، وكل عنصر منها ينتهي بالملاحظة إلى التضاؤل لحد سيئ». ولقد أظهرت التجارب أن معظم التصرفات الاجتماعية ذات علاقة ضعيفة جداً بالتوارث.

كما يقف بولز عند اقتراح كلارك بأن العجز عن كبح الاستهلاك، وهو ما يدعى بالترفضيل الزمني في علم الاقتصاد، قد تغير مع مضي القرون: فيوضح بولز قائلاً: «إذا كنت أنا فقيراً بمستوى أولئك الذين يستلمون قروضا بضمان رواتبهم، فربما يكون لي معدل تفضيل زمني عالٍ أيضاً.»

يقول الدكتور كلارك أنه عقد العزم على تأليف كتابه هذا بعد أن اكتشف جهل طلابه بالتاريخ الأوربي. وعندما عرض استنتاجاته على زملائه من الأساتذة لم يندهشوا فحسب، وإنما أبدوا اهتماماً بمعرفتها. وهو يرى أن «البيانات الحقيقية التي تختبئ بين ثنايا كتابه عصية على المخالفة، ويوضح: «عندما يدرك الناس منطقية عمل ما فإنهم يقولون <قد لا يكون من الضروري بأن أؤمن بهذا، ولكنه أصعب من أن يترك.>»

خلاصة: النجاة من فخ المالتوسية

يفترض أحد المؤرخين الاقتصاديين أن الثورة الصناعية التي حدثت في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر جاءت بسبب التغيرات السكانية.

احتجاز المجتمعات القديمة في الفخ

توقع توماس مالتوس عام 1798 مستقبلاً أسود للإنسانية: حيث يؤدي ظهور تكنولوجيا

نظرية عن الثراء وسط الوثائق القديمة

جديدة إلى زيادة معدل الدخل. ولكن هذه الزيادة سرعان ما تتلاشى بفعل ارتفاع عدد السكان.

لكن الأغنياء لديهم عدد أكبر من الأبناء...

يمكن للاختلاف في معدل الدخل الشخصي أن يؤثر على عدد الأطفال الذين تتاح لهم فرصة البلوغ. وفي تحليل لوصايا الوفاة في انكلترا حوالي عام 1600، تبين أن الأغنياء يميلون إلى أن يكون لديهم عدد أكبر من الأبناء مقارنة بالفقراء.

والذين كانوا أقل عنفا...

بما أن الفقراء لا يستطيعون أن ينجبوا من خلفهم، فإن ذرية الأغنياء تبدأ في التغلغل عبر كافة مستويات المجتمع، وبطراً التغيير التدريجي على السلوك. وفي تحليل لتقارير أسباب الوفاة عُثر على هبوط ثابت في معدل الوفيات الناتجة عن أعمال عنف.

وعلى مستوى أعلى من الثقافة...

وفي الوقت نفسه، قد تكون فائدة تناسل الأغنياء أدت إلى ارتفاع المستوى الثقافي. وهناك عدة دراسات عن عقود الزواج والوثائق القانونية تشير إلى زيادة في النسبة المئوية للأشخاص الذين كانوا قادرين على توقيع أسمائهم.

وهذا ساعد في انطلاق الثورة الصناعية.

إن هذه التغييرات الاجتماعية الواسعة بما تعكسه من مواقف مماثلة حيال ساعات عمل أكثر وتفضيل للدخار، نجحت في نشر قيم موجهة إنتاجياً. وفي حوالي عام 1790، تمكنت الأرباح أخيراً من أن تتفوق على النمو السكاني، مما أفسح المجال للمجتمع كي ينجو من فقر الكفاف.